

الترجمة كآلية تأويلية وتفسيرية وأثرها في التأسيس للفكر الفلسفي الإسلامي

تاريخ النشر: 2018-10-15	تاريخ القبول: 2018-08-06	تاريخ الارسال: 2018-08-15
-------------------------	--------------------------	---------------------------

(ب) هدية نعيمة، جامعة تلمسان

لا يمكن الحديث عن مصطلح الترجمة دون الالتفات إلى عراقته الزمنية، فهو من المفاهيم القديمة جدا في التاريخ ، لكن هذا القدم لم يمنعه من الإندثار والزوال بل على العكس من ذلك فإنه لا يزال مستمر وباقي حتى الوقت الراهن ، إن دل هذا الأمر على شيء فإنه يدل على مدى أهمية الترجمة كمصطلح وما مدى الوظائف التي تقدمها للعلوم . فهي التي توطد وتُفعل التبادل الثقافي بين الشعوب ، فضلا عن ترسيخ ثقافة الحوار .

بيد أن ذلك لم يُزل عنها السياج الشائك الذي يحيطها بالنسبة للمفكرين والباحثين الذين يخوضون هذا الميدان من أجل الإستعانة به ، فالبعض منهم صنف الترجمة كعلم قائم بذاته ، كما يمكنه أن يكون أيضا علما مساعدا ومرافقا للعلوم الأخرى في بحوثها ، والبعض الآخر صنفها كوسيلة لفهم العلوم وما تتضمنه في طياتها من معرفة .

مع العلم أن ميدان الترجمة هو حقل ثري لامس العديد من المجالات نظرا للأهمية التي لعبها هذا الفن ، لذلك وجب تتبع التطور الحقيقي لهذه التقنية الفنية من خلال بعث الأطر الأساسية البناء لتسطير عملية الترجمة والتي تبعث الروح المهيئة لتقبل فن كهذا.

ولعل من أكثر العلوم التي عانت من مشاكل وإخفاقات في الترجمة كانت الفلسفة . حيث يعد التفكير الفلسفي غابرا في الظهور عبر الحضارات الشرقية ، لكنه مع التراث اليوناني أسس لمعايير تشييده ، لذلك سطع نور الفلسفة الحقة من هناك ، فتعددت المدراس و تشعبت العلوم المنبثقة من الفلسفة التي إعتبرت من هذه الأخيرة قاعدة علمية لها، ما جعل من بلاد اليونان مقصدا لتعلم المعارف والعلوم . لكن هذا الأمر تطلب إدراك اللغة وتعلم مبادئها ، وبالتالي إمكانية ترجمة الكتب اليونانية ، هذا بالضبط ما فعله المسلمين ، الذين حاولوا النهل من الأرض اليونانية مختلف معارفها سواء الفلسفية منها أو الفلكية أو الرياضية أو الطبية . حيث نبغوا في اللغات القديمة ، وتمكنوا من البحث في مكنونات المعرفة اليونانية والفلسفية خصوصا .

لقد تجاوز العمل الترجمي فعل النقل إلى إمكانية فهم النص وإعادة التعبير عنه بطريقة القارئ ، هذا ما جعل العديد من الفلاسفة والمفكرين إلى التأمل في البحث عن حلول تُمكن الفيلسوف من الإستعانة بالترجمة بين إمكانية فهم المصطلح وضبطه في الحقل الفلسفي .

لذلك سنحاول في موضوعنا هذا طرق موضوع الترجمة بالمحاذاة مع الفلسفة للتعرف على حيثيات الموضوع المتناول داخل التراث الإسلامي ، وكيف تمكنت الترجمة من بسط المعرفة أمام الحضارات المختلفة وتعزيز الثقافة بينها ، هذا الأمر الذي يجعلنا نطرح إشكالا على النحو التالي:

كيف قربت الترجمة بين الشعوب والحضارات ؟ وكيف بنى الفعل الترجمي التراث والمعرفة الإسلامية ؟ وأين تتضح مساهمة الترجمة في الكتابة الفلسفية الإسلامية ؟ وهل من الممكن للفيلسوف أن يتخذ من الترجمة كوسيلة لإبداعه الفلسفي ؟ وما الذي مكن الترجمة كأداة وكفن من بناء المصطلحات الفلسفية ؟

هذا الأمر الذي جعلنا نخصص مقترحنا البحثي بغية التطرق إلى العمل الترجمي وإسهاماته الجبارة في رصد المعرفة الإسلامية والفلسفية ، وإبراز مدى التجاوب الذي حصل بين الميدانين وكيف تم تلقين الترجمة كحقل فني أداتي على حقل تأملي فلسفي. وبالتالي جعل التلقي الترجمي على حقل الفلسفة بمثابة رهان ، يمكن أن يتبث نجاحه أو لا، هذا ما سيتم التحقق منه بعد الخوض في غمار الموضوع المبين مستقبلا.

بالرجوع إلى تاريخ الترجمة نجدها قديمة جدا في التاريخ،حتى أنها ظهرت قبل الإسلام ،ومهدت لفترة الترجمة الإسلامية ،إذ حظي العمل الترجمي بمدن هامة حضنته وأسست له ،تلك المراكز الثقافية التي "إحتفظت بتقاليد العلم اليوناني العلماني الذي يمثلته المتكلمون بالسريانية،والذي كان قد ثبت مواقعه في مراكز المسيحية الشرقية عبر الهلال الخصيب من إديسا(الرها) وقنسرين في الغرب عبر نصيبين والموصل في شمال الرافدين حتى جنديسابور في عمق غرب فارس. وهي مراكز دينية خرجت العديد من العلماء الذين ظهوروا أثناء الفترة العباسية المبكرة،...وهناك أيضا مركزان مهمان للعلم اليوناني ومكان لولادة حركة الترجمة اليونانية - العربية العباسية وهما حاران(كاره)في شمال أرض الرافدين و مرو في أقصى الشمال الشرقي من فارس على أبواب آسيا الوسطى"¹.كما لا ننسى مدرسة الإسكندرية أيضا التي لعبت دورا هاما كونها حضنت الفلسفة اليونانية وحفظت تعاليمها وكتبها و مدرسيها.بيد أنه مع مجيء الإسلام تم ضم كل تلك المراكز سياسيا وإداريا .

وبعد ذلك شوهدت الترجمة أيضا في فترة العهد الأموي لكن لم تنتشر بشكل عميق،إذ يحدد ابن النديم في كتابه الفهرست أن أول نقل إلى العربية قد تم في العصر الأموي بإيعاز بشخصية لامعة ومرموقة وهو :**خالد بن يزيد بن معاوية**"حيث أمر في زمانه بإحضار فلاسفة اليونان ممن كان ينزل في مدينة مصر،وقد تفصح بالعربية،وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة من اللسان اليوناني والقبطي إلى العربي، وهذا أول نقل كان في الإسلام من لغة إلى

¹:ديمتري غوتاس،الترجمة العربية في نهضتها الأولى (قراءة في كتاب - الفكر اليوناني والثقافة العربية)، تر: نقولا زيادة ، قراءة :هالة علي،ب،ط.ب.س،ص267.

لغة².. مع العلم أن النقل الشفهي قد سبق النقل الكتابي الذي تمت ممارسته في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام على يد زيد بن ثابت الذي كان يترجم الرسائل التي كان تأتي للرسول . كان خالد مولعا بالبحث والحكمة والكيمياء، وإن لم يكن عالما في الأخيرة إلا أنه كان يطلب نصوص الأقدمين قصد ترجمتهم والانتفاع بمعارفهم. تبعا لذلك فالترجمة في العصر الأموي كانت لغرض شخصي وبمبادرة فردية فقد كانت هواية أكثر منها مشروع حضاري. فبانتهاء العاصمة الإسلامية من دمشق إلى بغداد ، هذا الأمر قد مكن العباسيين من التمسك بالثراث الإغريقي والمحافظة عليه على عكس ما كان في دمشق أين سيطرت عليه أيدي البيزنطيين الذين كادوا أن يمحوه.

لقد كان العرب المسلمون مولعون بالفلسفة كعلم وميدان جامع لمختلف علوم الحياة، ففضولها وجعلوا من خلفائهم يأمرهم بترجمة أمهات الكتب الفلسفية لأعمدة الحكمة الإغريق الأوائل. ففي عهد المهدي وفي ظل الظروف الأيديولوجية التي عاشتها الدولة العباسية إقتضى منه الأمر إلى البحث عن سبيل لإقناع الجمهور الإسلامي، أن الإسلام هو ركيزة الدولة، لكن خصومه المحاورين كانوا أكثر بلاغة منه وإقناعا ومحاجة كون مؤيديه كانوا يمثلون أقلية دينية في الهلال الخصيب وفارس، هنا لجأ المهدي إلى البحث عن دليل بالعربية يمكن أن يعلم فن المجادلة ، فلم يكن أقل من كتاب المقولات لأرسطو ، الذي أطلق مشروعا بأكمله³. إزداد الأمر تطورا وإزدهارا ليس له مثيل على يد الخلفاء العباسيين إنطلاقا من زمن أبي جعفر المنصور فهارون الرشيد و المأمون، وبالتالي تأسيس ما سمي ببيت الحكمة في بغداد، ففي عصر المأمون وصلت عملية النقل والترجمة إلى أوجها فقد واصل ما تركه جده المنصور و هارون الرشيد ، فكان يبحث عن أصول الكتب والمعارف و يترجمها ، "فراسل إمبراطور الروم ليرسل له كتب أفلاطون وأرسطو ، أبقراط، وجالينوس ، إقليدس، بطليموس وغيرهم ، كما عمل المأمون على إرسال بعثات خاصة بحثا عن الكتب النادرة ومن هؤلاء نذكر :حنين بن إسحاق ، الذي كان يجيد اليونانية والسريانية، وهو المترجم الفذ⁴.

هذا البيت الذي سمح بترجمة أفضل الكتب لأعرق الحضارات، كان فيه أمهر المترجمين وهو حنين بن إسحاق، "الذي يقال أنه كان يأخذ وزن الكتاب المترجم ذهباً"⁵. وفقا لذلك تميزت الترجمة و عُدت قضية مهمة في الدولة ، فلم تعد ترفا شخصيا بل أصبحت لها ميزانية ممولة من الدولة قصد الإهتمام بهذا الفعل الجلي على أسس منهجية صارمة ، الأمر الذي مهد لإبداع حضاري إسلامي.

²:أنظر، محسن المحمدي ، الترجمة: وسيلة تلاقح حضاري ،مؤسسة مؤمنون بلا حدود،ص20
³: ديمتري غوتاس، الترجمة العربية في نهضتها الأولى (قراءة في كتاب - الفكر اليوناني والثقافة العربية)، المرجع السابق، صص 271، 272.
⁴:محسن المحمدي، المرجع السابق، صص 24.
⁵: المرجع نفسه، صص 9

لقد فتحت الترجمة للعرب المسلمين أفقا واسعا أنار دروبهم لعدة قرون ،فقد تغدوا من الحضارة اليونانية بصفة خاصة ، كما تغذى هؤلاء من الحضارات الشرقية سابقا وإنتهلوا من نبعها العميق، الأمر الذي أنتج لنا فكرا إسلاميا عربيا أنجب لنا العديد من الفلاسفة والعلماء أمثال الكندي والفارابي والبتاني والبيروني وابن سينا وابن الهيثم، وابن النفيس وابن رشد،... وغيرهم، كما لا ننسى ظهور الفرق الكلامية على إثر الترجمة التي عرفت المسلمين بفكر إغريقي جديد و عن تفكيرهم، فبحثوا بين ماهو عقلي وماهو ديني، فكل فرقة نادى بأفكار إقتنعت بها في هذا الصدد.

إن تناول الترجمة للعرب كان منحصر في العلوم العقلية كالفلسفة والطب والمنطق والطبيعة ولم يتم التطرق إلى الأمور الروحانية كونها لا تتوافق والدين الإسلامي. إن الشيء المميز الذي تفرد به العرب المسلمين أنهم لم يكتفوا بالترجمة للفكر اليوناني بل أنهم أبدعوا فيه وحاولوا إكمال نواقصه وسد ثغراته الفكرية وفقا لما يناسب العقل والنقل، وهو ما نجده جليا مثلا في علم الفلك عندما صحح وصوب الفلكيون المسلمين حسابات الفلكي "بطليموس الإسكندراني ذي الثقافة الإغريقية"⁶.

لقد سبق لنا ذكر المترجم العبقري حنين ابن إسحاق ، على الرغم من وجود العديد من المترجمين آنذاك إلا أن إستراتيجيته في الترجمة جعلته رئيس المترجمين، "وكان من أبرز الشخصيات العلمية في القرن التاسع الميلادي... فعلى الرغم أنه كان مسيحي الديانة إلا أنه في عمله الترجمة كان يسعى إلى مواءمة الترجمة للمعتقد الإسلامي ويبعد عنها أفكار شركية، فإذا ما وجد فكرة لا تناسب التوحيد كان يموه ويحور المعنى بطريقة ذكية، حتى لا يتأثر المضمون الإجمالي،... كما أجمع الباحثون على أنه فقيها فيلولوجيا"⁷. فالترجمة قبل حنين كانت تمر بالترجمة من اليونانية إلى السريانية ، ثم من السريانية إلى العربية، لكن مع حنين بن إسحاق أصبحت الترجمة مباشرة من اليونانية إلى العربية. كما أن المترجمين قبله كانوا يبحثون عن مقابل الكلمات من اللغة الأم إلى العربية، الأمر الذي نتج عنه ترجمة رديئة و مشوهة، لكن حينما تولى "حنين" الفعل الترجمة جعل النقل حسب المعاني دون أن تقيده بمواقع الكلمات ، هذا الأمر جعله ينال رضى المأمون وإعجابه فأغدق عليه الهبات. تلك التقنية التي كان يشتغل بها حنين ابن إسحاق ذات الحس العلمي العالي والتي كانت قائمة على عملية الفهم والتغيير في الصياغة قد أكسبت الترجمة مرحلة جديدة من التطور⁸.

إذن أصبحت الترجمة في فترة الخلافة العباسية جزءا من مشروع علمي بالعربية، لكن ما يلفت الإنتباه هو أن المترجمين أغلبهم لم يكونوا مسلمين ، إختلفت دياناتهم وإثنياتهم، وفئاتهم من ناطقين بالعربية و السريانية و اليونانية و الفارسية ، إلا أنهم إجتمعوا حول فعل علمي

⁶: المرجع نفسه، ص13

⁷: المرجع نفسه، ص ص 26، 27.

⁸: يتصرف، محسن المحمدي ، المرجع السابق، ص27.

غرضه تنوير العقول وتسديد الأفكار والسعي نحو تطوير التراث العربي، حتى وإن اختلفت النوايا بين المترجمين وكل يأخذ أجره المادي، إلا أن غايتهم كانت تحقيق ترجمة سديدة حقيقية تبلغ عن المعنى الأصيل للغة الأم. ذلك التظافر بين الأجناس لغاية علمية حكيمة يبعث إلى تجسيد قيمة التسامح والتعايش بين الشعوب والأقوام وهو ما تهدف إلى بلوغه الروح الإسلامية.

إن الترجمات التي قدمها العرب لم تكن مجرد عمليات نقل لما تم حفظه في الكتب اليونانية والفارسية فقط، إنما تبع ذلك إبداعا منقطع النظير، الأمر الذي سمح بجلب أفكار جديدة في الحقل الفلسفي وفق ما يقتضيه الدين الإسلامي، مما سمح بالمزاوجة بين فكر أجنبي له أصل يوناني وفكر مستمد من القرآن والسنة الشريفة، هذا الفاعلية قد منحت الفرصة لإطلاق العنان للأئمة والمفكرين المسلمين آنذاك من خلال التأسيس لعلم الكلام الذي إنبتقت منه الفرق الكلامية الإسلامية، هذا العلم الذي وظف الفلسفة في أمور تفسيره للقرآن والسنة وفق أطر شرعية، ومنطقية عقلية. فظهرت العديد من الفرق أبرزها: المعتزلة والأشاعرة، والجبرية، فكل فرقة نادت بقناعاتها الخاصة بها إنطلاقا من فلسفتها الدينية.

لقد سمح علم الكلام بتنوير الأفكار الدينية التي كانت محتجبة قبل عملية الترجمة، إذ يمكن القول أن الفكر اليوناني ساهم في بلورة وصقل الأفكار الإسلامية وفق طريقته العقلية. فبدأ العلماء المسلمين بالتفلسف وإطلاق العنان لأفكارهم قصد تشييد فكر وفلسفة إسلامية مستمدة أطرها من اليونان والقرآن.

لقد كان من أبرز الفلاسفة المسلمين الذين ذاع صيتهم في الأفق: ابن سينا، الفارابي، الكندي، ابن رشد، الذين إستقوا وتشربوا من الفلسفة اليونانية وترجموا لها أفكارها وأطعموها بأفكارهم الإسلامية، الأمر الذي نتج عنه خلطة سحرية من الفكر الفلسفي، بهر كل من يقرأ لهم سواء من معاصريهم العرب أو الأجانب، فتهافت عليهم الطلب المعرفي.

تلك الفترة الإسلامية كانت ذهبية بالنسبة للعرب المسلمين مقارنة بغيرهم من الغرب الذي كان يعيش حالة من البؤس الفكري والظلام المعرفي.

عندما نرجع إلى تناول هؤلاء الفلاسفة فإننا نجدهم كنزا فكريا ضخما لا يستهان به، فقد أثبتوا جدارتهم عن إستحقاق في نيل شرف الفلسفة اليونانية الأولى.

إعتبرت الفلسفة اليونانية بمثابة الأرضية المعرفية الصلبة التي مدت الفلاسفة المسلمين بقاموس مفاهيمي عميق، تمكنوا من خلاله الإبداع في التفلسف، فوجدت بعض المصطلحات الفلسفية التي تعذرت فيها الترجمة الحقيقية، لأنها ستفقد مكنونها المعرفي إذا ترجمت بالعربية كاملة، فتم الاحتفاظ بها كما هي يونانية وإعطائها النغم العربي في النطق، تلك كانت من المتعذر ترجمته "كالهولي مثلا والصورة والأسطوانات والعلل الأربعة: المادية والصورية والفاعلة والغائية،... وكما هو الأمر -هنا- بالنسبة للكندي، سيكون المفهوم الفلسفي

اليوناني حاضراً بقوة في فلسفات (الفارابي) و(ابن سينا) و(ابن باجة) و(ابن رشد)، بل سيكون مكوناً أساسياً لخطاباتهم الفلسفية⁹.

كان الحضور الفلسفي في بداياتها عند الفلاسفة العرب مستمد من القضايا الفلسفية التي تشكلت عند اليونان، على الرغم من صياغة الفيلسوف المسلم لقضايا عصره المعاشة إنطلاقاً من شروط ثقافته ومجتمعه وخصوصيته، كأن الفيلسوف المسلم يعالج قضايا مجتمعه إنطلاقاً من تحليل هجين ومُطعم من فلسفة إغريقية وعربية، ليتمكن من حل قضاياها بنظرة فلسفية عاقلة.

في هذا الصدد يقول محمد عابد الجابري في كتابه "نحن والتراث": "نقل أجدادنا الفلسفة اليونانية، كما وصلتهم، إلى اللغة العربية، وحاولوا التوفيق بينها وبين معطيات المجتمع الإسلامي الدينية والفكرية. ولكنهم لم يفعلوا ذلك لمجرد النقل والتوفيق. لم يكن عملهم ذلك مجرد ترف فكري، ولا كان صادراً عن الرغبة في الاطلاع على ما لدى الغير من معارف وعلوم، بل كانت هناك دوافع عميقة إلى ذلك، دوافع نابعة من واقعهم الاجتماعي والسياسي والثقافي؛ وبكلمة واحدة: واقعهم الحضاري العام"¹⁰.

لقد حققت الفلسفة الإسلامية بصمتها الفلسفية الحاضرة مع الفيلسوف الفذ "الكندي"، حيث كانت الحكمة اليونانية هي ماضيها، لأنه لم يوجد تراث فلسفي آخر غير فلسفة اليونان: فلسفة أفلاطون وأرسطو، فهذا لا يعني أن النظرة الفلسفية الإسلامية إستغنت عن نظيرتها اليونانية، بل على العكس من ذلك لازمتها في كل مجرياتها العقلية والنظرية بل حتى أن الإسلامية منها تجاوزتها في بعض الأطاريح وكيفتها وفقاً لأطر عصرها الإسلامي المعاش. يعتبر أبو يوسف يعقوب بن اسحق المسمى بالكندي نسبه إلى بلدته كندة من بني كهلان ببلاد اليمن، أنه فيلسوف العرب و أول من تفلسف منهم آخذاً بمذهب المشائيين ومتأثراً بفلسفة أرسطو المصطبغة بالأفلاطونية المحدثه. كان عالماً في مختلف علوم الحياة كالطب والفلك والرياضيات وغيرها لكنه برع أكثر في الفلسفة وهو أول من حاول التوفيق بين الفلسفة والدين قبل الفارابي متبعاً منهج التأويل في تلك المحاولة التوفيقية، كما إحتل مكانة مرموقة عند الخلفاء العباسيين كالمأمون والمعتصم نظراً لعلمه الفلسفي الحاد. ومهد للعديد من الفلاسفة الذين أتوا بعده بالكثير من نظرياته ومؤلفاته الفلسفية. لم يجعل الكندي حاجزاً بين ماهو فلسفي وماهو ديني، لأن كلاهما يصبان في نبع الحقيقة، حيث دافع عن الفلسفة دفاعاً شديداً بقوله: "إن عداً هؤلاء للفلسفة إما لضيق فطنهم عن أساليب الحق، وإما لدرانة الحسد المتمكن من نفوسهم البهيمية، أو هو ناشئ عن سوء قصد منهم، إتهم غرباء عن الحق، وإن توجوا بتيجان الحق من غير استحقاق... إتهم يعادون الفلسفة دفاعاً عن كراسيهم المزورة التي نصبوها من غير استحقاق، بل للتروؤس والتجارة بالدين، وهم عدماء الدين، .. ويحق أن

9: فلسفة اليونان وأثرها على بنية الفلسفة الإسلامية، "ألف" لحرية الكشف في الإنسان والكتابة، 30/07/2013.

10: المرجع نفسه.

يتعرى من الدين من عاند قنية علم الأشياء بحقائقها وسماها كفراً¹¹. ونظراً على حرصه الفلسفي الشديد فقد إعتبر الفلسفة أشرف صناعة و دراستها واجبة وهي خادمة للدين كونها تعتبر كأداة تنويرية تفسيرية لتعاليمه الغامضة.

أما عندما نتجه نحو أبو نصر محمد بن محمد طرخان أوزلغ الفارابي الفارسي الأصل، نجده يرى أن "الدين الإسلامي لا يناقض الفلسفة اليونانية وإن كانت هناك فروق ومتناقضات ففي الظواهر لا في البواطن، ويكفي لإزالة الفروق أن نعود إلى التأويل الفلسفي ونطلب الحقيقة المجردة من وراء الرموز والاستعارات المختلفة. فالدين والفلسفة يصدران عن أصل واحد هو العقل الفعال"¹²، ومنه آمن بوحدة الحقيقة مهما اختلف مصدرها، لذلك حاول التوفيق بين أفلاطون وأرسطو في فلسفته في سبيل التوحيد بين العقل والنقل، كما عرف بالمعلم الثاني، ليقول في كتابه - تحصيل السعادة - : "فالملة محاكية للفلسفة... وهما تشتملان على موضوعات بأعيانها، وكلاهما تعطي المبادئ القصوى للموجودات، وتعطيان الغاية القصوى التي لأجلها كون الإنسان، وهي السعادة القصوى، والغاية القصوى، وكل ما بين الدين والفلسفة من فرق عند الفارابي هو أن الفلسفة تعطينا الأدلة والبراهين العقلية والدين يعطينا الأدلة والبراهين الإقناعية"¹³، فمن خلال هذا القول نجد أن الأساس الفلسفي للفارابي كان هو البحث عن الحقيقة بغض النظر عن طبيعة مصدرها، فبحث في الكون ونشوءه إستناداً إلى الفلسفة اليونانية الأرسطية وكذا النظر في تعاليم القرآن والخلوص إلى تفسيرات عقلية فاعلة خالصة.

"ليست الفلسفة العربية وليدة الفكر العربي وحده، - بل - هناك شعوبا عديدة أسهمت في تكوينها وعملت على تركيزها وتطويرها، منها الفرس والهنود والأتراك والسوريون والمصريون والبربر والأندلسيون، وليست مدينة للإسلام وحده... فقد أخذت عن اليونان والنصارى من الذين اعتنقوا الإسلام وأدخلوا فيه، عن قصد أو عن غير قصد، عناصر عديدة غريبة عنه، فقد نفذت إلى الإسلام تيارات ثقافية ودينية متعددة، تفاعلت فيه ومعه، فنشأ عن هذا التفاعل أفكار جديدة كان لها أثرها الفعال في تطور الفكر البشري"¹⁴. كل ذلك الأمر تم وفق لفعل الترجمة، الذي مكن من تبادل المعارف والخبرات بين الشعوب.

نستشهد في هذا السياق بقول للمستشرق الألماني دي بور T.J.De Bor في كتابه تاريخ الفلسفة في الإسلام، الذي يعتبر أول كتاب يؤرخ للفلسفة الإسلامية ككل، حيث يقول: "شأن الفلسفة الإسلامية، من الوجهة التاريخية أكبر كثيراً من مجرد الوساطة بين الفلسفة القديمة وبين الفلسفة المسيحية في القرون الوسطى... ولتاريخ الإسلام شأن أيضاً لأنه يرينا أول

¹¹: صالح الرقب، دراسة في الفلسفة اليونانية والإسلامية، موقع الحوار، 24/02/2015،

<http://www.alhiwartoday.net/node/9333>

¹²: المرجع نفسه.

¹³: صالح الرقب، المرجع السابق.

¹⁴: حنا الفاخوري، خليل الجر، تاريخ الفلسفة العربية، ج1، دار الجيل، بيروت، ط3، 1993، صص 127، 128

محاولة للتغذي بثمرات الفكر اليوناني تغذيا أبعد مدى و أوسع حرية مما كان عليه الأمر في نشأة علوم العقائد عند النصارى الأولين¹⁵.

وإن رجعنا إلى كتاب المستشرق هنري كوربان Henri Corbin المعنون بتاريخ الفلسفة الإسلامية وجدناه يبرز ما مدى أهمية الطابع الروحي للفلسفة الإسلامية إنطلاقاً من التأمل الروحي للقرآن، فإن "حياة الفلسفة في الإسلام لا يمكنها أن تعود إلى علماء السنة والشيعية على السواء... وإنما تعود إلى ما يصطلح بتسميته الفلسفة النبوية وهي فلسفة تأويلية أكثر منها جدلية في بنائها البرهاني للمجردات المنطقية أي أنها طريقة في التفكير تفضل تدرجا يرتبط بالكشف وإزاحة الستار عن ما هو محجوب تحت الظاهر"¹⁶.

"يفترض كوربان بأن الإدراك الرمزي المؤسس على التأويل لنصوص القرآن هو بالضبط إدراك باطني روحاني لمعاني هذه النصوص ذلك أن التأويل يقتضي أساساً مبدأ رمزية النص، وجملة فإن المعنى الحقيقي للقرآن هو المعنى الباطني الروحي". هي تبعا لذلك فلسفة عرفانية تبحث عن حقيقة النجاة. إنطلاقاً من هذه النظرة الإستشرافية سنخرج إلى حقيقة أساسية لا غنى عنها ألا وهي أن الترجمة كانت سبيلاً وطريقاً أساسياً للتفلسف العربي الإسلامي، فهذا الأخير اعتمد خلال تلك الترجمة والنقل على تفسير وتأويل المادة المعرفية المستقاة لهدف بناء أسس فكرية فلسفية تحاور وتجاوز تلك اليونانية في آن الوقت.

إن عدنا إلى تفسير قول المستشرق هنري كوربان كون الفلسفة هي نبوية مع الإحتكام إلى معاني روحانية التي تمنح الإنسان الإحساس العرفاني بدلاً من الإحساس المادي. فالمعراج النبوي قد مكن الرسول من التعرف على بعض من الأسرار الإلهية الغيبية، إضافة إلى الوحي الذي كان يفسر بعض الأمور الدينية للرسول. لذلك ما يعنينا في هذا السياق في البحث في ماهية الفلسفة والترجمة من خلال الترجمة الفلسفية والفلسفة الترجيمية، "فيكون التأمل الفلسفي متوسلاً بقواعد الترجمة ويكون العمل الترجيمي متوسلاً بمعاني الفلسفة"¹⁷. إذن قياساً لذلك يمكن القول أن هذه الفلسفة التأويلية تحتاج إلى رسول ينقل المعرفة بين الإله والإنسان ليترجمها ويفسر لها ويؤولها. وهو نفس الأمر الذي يرجع بأصول الترجمة إلى الإغريقية التي تنطوي تحت مصطلح شامل وهو الهيرمينوطيقا التي تعود بجذورها إلى الكلمة اليونانية "هرمس" التي تعني التفسير أو الإفهام، وهو رسول الآلهة وبحكم وظيفته كان يتقن لغتهم، ويفهم ما يجول بخاطرهم ثم يترجم هذه مقاصد وينقلها إلى أهل الفناء من بني البشر، إذن هذه العملية هي فن الفهم وتأويل النصوص، وكشف كل ما هو مستور ومخفي

¹⁵:عابد محمد الجابري، التراث والحداثة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 1991، صص 82، 81

¹⁶:خديجة السمعلي، الفلسفة والتصوف: قراءة في كتاب الفلسفة الإسلامية لهنري كوربان، مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، يناير 2015.

¹⁷:انظر، عبد الرحمن طه، فقه الفلسفة 1 - الفلسفة والترجمة -، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - بيروت، ط 1، 1995، ص 105.

هنا يحثنا هايدغر على الإنسان أن لا يفعل بل أن يفعل ، ألا يتكلم بل أن يصغي، ألا يفسر بل أن يفهم الشيء الذي أسفر عن نفسه، والشيء المثير في هذه النقطة أن هايدغر يعود بنا إلى ماوراء تقنية التفسير إلى لحظة أكثر بداءة، بمعنى آخر يريد هايدغر حث المفسر على التأمل في النصوص بحب فقيه اللغة للألفاظ ،و أن يعطي كل لفظة في كل موضع وزنها الكامل ،والذي يكون في الأغلب خفيا ومستورا، الأمر الذي يفسر تفضيل هايدغر لفظة hermeneutics على لفظة interpretation ،لسبب أن اللفظة الأولى يراد بها محاولة لاستعادة فهم الوجود وإسترداد الوعي به¹⁸. كما أن غايته تنبثق من إمكان فهم الذات لذاتها بماهي موجودة ،وقد عبر بول ريكور عن تأويل الرمزية معتبرا أنه لا يصح هيرمينوطيقيا إلا بمقدار ما أنه جزء من فهم الذات لذاتها ومن فهم الوجود وهو لا يساوي شيئا خارج هذا العمل الذي يسعى إلى إمتلاك المعنى،...ليضيف أن الحاجة إلى التأويل تنشأ من حقيقة أن المعنى في النصوص المكتوبة صارت متحررة من مؤلفيها ومن متلقيها¹⁹. ومن هنا تكون إرادة التأويل عند ريكور هي إرادة التخطي والتجاوز والإنتهاك للحدود المرسومة في النص التي لا يمكن تجاوزها إلا به. إذن تم تناول ريكور للتأويل بوصفه مستوى إستراتيجيا على نحو يعطي للدلالة الرمزية أهميتها التحليلية في علاقتها مع الواقع ومع التجربة ومع العالم ومع الوجود،...والسير في الطريق الفكري الذي يفتحه النص أي الإتجاه نحو ما يضيئه النص ويشرق عليه²⁰.

"فالعمل "يؤول" يشير إلى ثلاث أمور :التعبير أو التلاوة الشفاهية،و الشرح أو التفسير ،و الترجمة من لغة إلى أخرى، لكن العملية الهرمسية قائمة في الحالات الثلاث²¹"، "إذ لا تعدو الترجمة أن تكون شكلا من أشكال التأويل ،فالعملية التأويلية الأساسية قائمة بتمامها في عملية الترجمة، فالمرء في عملية التأويل يأتي بشيء أجنبي أو غريب غير مفهوم ويسلكه في وسيط لغته الخاصة، والمترجم شأنه شأن الإله هرمس يتوسط بين عالم وآخر ،وبذلك فعمل الترجمة ليست عملية آلية بسيطة همها هو إيجاد مرادف، بل يتجاوز ذلك إلى أن المترجم هو وسيط بين عالمين مختلفين لا عالمين متناظرين²². ف لترجمة الفلسفة لأبد من فلسفة للترجمة ،وهذه الفلسفة لا يضعها غير الفلسفة على هيئة ضرب من الدور²³.

الترجمة هي أن يتم حمل النص الأصلي إلى لغة أخرى ،بحيث يصبح النص المترجم ،له شكل مختلف وأفق جديد حاملا لشيفرة معينة، وكأنه يُكتب لأول مرة، " هذا يعني أن النص يحمل أكثر مما تحويه اللغة التي تكتب بها، شيء قادر على التنقل والتشكل بأشكال

18 :أنظر، عادل مصطفى، فهم الفهم "مدخل إلى الهيرمينوطيقا"، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط2007، 1، ص ص ص 25، 26، 29.

19: عبد القادر فيدوح ،فن التأويل بين الفلسفة الإسلامية والفلسفة الغربية، ب ط، ب س ، ص 17.

20: المرجع نفسه، ص ص 18، 19.

21: المرجع نفسه، ص 35.

22: المرجع نفسه، ص ص 54، 55.

23: صالح مصباح ، الترجمة وتجدد الفلسفة في العربية ، مجلة تبين، العدد 2/6، خريف 2013، ص ص 62، 63.

مختلفة، وفي كل تشكل جديد هنالك مشهد جديد وصور مختلفة... فإننتقال النص إلى لغة أخرى، يخلق عالماً نصياً جديداً، رغم بقاء اللغة الأصلية حاضرة فيه، بكل سلطاتها ومرجعياتها ومعاييرها... (إذن) المسألة ليست مجرد خلع النص الجديد، لثوب لغوي سابق... بل هي عملية إلتحام وتشابك بل وصراع بين لغتين أو أكثر، تنتهي بتسوية لغوية، بين ما عبر عنه في اللغة الأولى، وما يمكن أن يعبر عنه في اللغة الثانية، بحيث يصبح الشكل الجديد للنص، عبارة عن إنصهار فضائين، فضاء لغة النص الأول، وفضاء لغة الترجمة الثانية، بكل أحمال أو أنقال الفضائين الثقافية والاجتماعية والسلطوية بل و الدينية²⁴.

إن الهرمينوطيقي l'herméneute مترجم يجعل بفضل معارفه اللسانية، الغامض قابلاً للفهم، وذلك باستبدال الكلمة التي لم تعد مفهومة بكلمة أخرى تنتهي إلى الحالة اللغوية الخاصة بالقارئ الذي يترجم له هذا الهرمينوطيقي، ولكن عملية الكشف عن المعنى الحرفي le sens littérale وتحديدده، كانت تصاحبها عملية البحث عن المعنى المجازي le sens allégorique الذي يكمل المعنى الحرفي ويتجاوزه، وهكذا يشترك التأويل اللغوي أو النحوي grammaticale l'interprétation (الذي يركز على معاني الكلمات) والتأويل المجازي في هذه الإرادة (بغية) تجاوز أو ردم الهوة التي حفرها التاريخ²⁵.

إن فعل التفلسف محتوى في فعل الترجمة، "هذا الذي يجعل من الفلسفة حواراً بين النصوص وبين اللغات، بهذا المعنى لا يمكن الفصل بين لحظتين: لحظة إعداد النص وترجمته، ثم لحظة استخدامه والتفكير فيه"²⁶.

"إن ترجمة النصوص الفلسفية لا يمكن إلا أن تتلبس الممارسة الفلسفية ذاتها، ولن تعود الترجمة مجرد فعل في تلك النصوص، وإنما تغدو تفاعلاً معها، لن تعود تفكيراً في تلك النصوص، وإنما تفكيراً بها. لعل هذا هو ما يفسر كون الترجمة الفلسفية تظل لا متناهية حتى داخل اللغة الواحدة، ومادام النص الفلسفي موضع فكر فهو يترجم وتعاد ترجمته.

نعتقد أن مصدر الصعوبة في الترجمة، ليس مأتاه تحقيق التوازي بين لسانين -لأن ذلك دليل على سوء فهم غرض الترجمة- بل هو تصور المعنى الواحد، بين عبارتين حتى في اللسان الواحد؛ أي أن اختلاف الدال شرط ضروري في الترجمة الداخلية، فضلاً عنه في الترجمة الخارجية. ومعنى ذلك أن الترجمة الداخلية (في اللغة نفسها) لا تقل صعوبة عن الترجمة الخارجية (بين لغتين)، وأن مشكلة الترجمة أعم من مشكلة العلاقة بين ضروب الإفادة في

²⁴: أنظر، دافيد جاسير، مقدمة في الهرمينوطيقا، ترجمه قانصو، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم - ناشرون، الجزائر، بيروت، ط2007، ص1، ص7، ص8.

²⁵: عبد العزيز بوالشعير، غدامير من فهم الوجود إلى فهم الفهم، منشورات الاختلاف، الجزائر، دار الأمان، الرباط، ط2011، ص1، ص18.

²⁶: عبد السلام بنعبد العالي، الفلسفة أداة للحوار، دار توبقال للنشر، المغرب، ط2011، ص37.

لسانين مختلفين، لأنها تنتسب إلى مشكلة المحافظة على وحدة المدلول خلال تنويع الدال، سواء أكان ذلك في اللغة نفسها أم بين لغات مختلفة²⁷.

هنا نستعين بقول لجاك دريدا: "لا يحيا النص إلا إذا بقي ودام، وهو لا يبقى ويتفوق على نفسه إلا إذا كان في الوقت ذاته قابلاً للترجمة وغير قابل. فإذا كان قابلاً للترجمة قبولاً تاماً فإنه يختفي كنص وكتابة وجسم للغة. أما إذا كان غير قابل للترجمة كلية، حتى داخل ما نعتقد أنه لغة واحدة، فإنه سرعان ما يفنى ويزول". هذا ما يفسر أن هناك تصوران للترجمة يتمخض عن كل منهما تحديد معين لما لا يقبل الترجمة: التصور الأول يقر منذ البداية بأن الترجمة ممكنة، لكن قد تعترضها عثرات وتواجهها صعوبات... تجعلها عسيرة بل ومتعذرة في بعض الحالات. أما الثاني فيرى بدءاً أن الترجمة متعذرة وعسيرة إلا أنها ضرورية على رغم ذلك. إنها إستحالة ينبغي إختراقها، وعقبات ينبغي تخطيها. إذن يسلم الأول أن الإمكانية من وراء المترجم والإستحالة أمامه أي الإمكانية مبدأ والإستحالة منتهى، لكن الثاني يرى عكس ذلك، بحيث أن الإستحالة هي المنطلق²⁸.

إذن هوس المترجم لا يكمن في الوصل وخلق قرابة وإلتهام الآخر وجره نحو الذات، إنما الذهاب نحوه وفتح النص، وفتح الثقافة على أخرية الآخر، وإثرائها عن طريق التلقيح باللغة الأخرى و"إستضافة الغريب".

يوضح دريدا أيضاً أن العمل المترجم لا يبقى مدة أطول فحسب، بل يبقى ويرقى. "إنه يدوم ويرتقي ويتفوق على نفسه sur-vit، يتفوق على إمكانيات كاتبه، ويمكن أن نضيف إمكانيات لغته الأصلية، إمكانيات نصه. وكتب أيضاً إمبرتو إيكو في هذا السياق: "كنت أشعر أن نصي يكشف، عند لقائه بلغة أخرى، عن إمكانيات وطاقات تأويلية طالما ظلت خفية غائبة عني". إذن الترجمة لا تكتفي بنقل المعنى وكل محرضاته، بل تخلق مع المعنى محرضات وإثارات جديدة، فهي تخلق نصاً جديداً من قلب النص الأصلي... الترجمة لا تبحث عما يقوله النص فقط بل تبحث عما لا يقوله،... لذلك تبقى الترجمة عملية قراءة للنص وللمؤلف معاً، وتنتقل بين ما يدل عليه النص وما يقصده المؤلف... فالمترجم يقرأ ليفهم ويفسر ويخلق نصاً جديداً، وبذلك فالترجمة هي اندماج بين أفقين، أفق ثقافة المؤلف وأفق الثقافة المترجم إليها، فالمترجم لا يفك شيفرة النص ليعيد كتابته بشيفرة جديدة بل في الترجمة الناجحة يكون الأفقان حاضرين ومنصهرين في ذهن المترجم، لكي على الترجيح بين الاحتمالات من التعبير والقصد والمعنى... لكن الباب يبقى مفتوحاً أمام القراء في ترجمة النص إلى نصوص²⁹.

27: أبو يعرب المرزوقي، فلسفة الترجمة الفلسفية وشروط الإبداع الحضاري، ب، ع، س.

28: عبد السلام بنعبد العالي، الفلسفة أداة للحوار، المرجع السابق، ص 42، 41.

29: دافيد جاسير، مقدمة في الهرمينوطيقا، المرجع السابق، ص 11، 10.

ووفقا لذلك يمكن القول أن الفلسفة العربية الإسلامية لم تكن فترة مرحلية من الترجمة والتفسير التي مهدت لإعادة إنتعاش الحضارة الغربية على إثر آثار الفلاسفة العرب في العصور الوسطى وتنويرهم بقراءاتهم للفلسفة اليونانية، إنما كان المسلمين المتفلسفين قد جاوزوا مراحل زمنية نحو بعث فكر عربي إسلامي بني من مزيج إغريقي و إسلامي تفنن فيه العرب المسلمين من خلال ترجمة فلسفية فذة تلاهف عليها الغرب .

تبعا لذلك يمكن القول أن الترجمة كانت ولا زالت أداة وفنا لتأسيس الفلسفة، فلولاها لما تمكن الفلاسفة الغربيين من تناول الفلسفة اليونانية ولا ما تم التعرف على أفكارهم ومحاولة صقلها وبناء منظور فلسفي آخر، لذلك مهما حققت الفلسفة من نجاحات كان مشروع الترجمة ملازما لها من خلال فتح باب التأويلات اللامنتهي واللامحدود وتحقيق المستجدات وبناء مصطلحات فلسفية وصقلها من جديد.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1/ بنعبد العالي عبد السلام، الفلسفة أداة للحوار، دار توبقال للنشر، المغرب، ط1، 2011
- 2/ بوالشعير عبد العزيز ، غدامير من فهم الوجود إلى فهم الفهم، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، (2011)
- 3/ حنا الفاخوري، خليل الجر، تاريخ الفلسفة العربية، ج1، دار الجيل، بيروت، ط3، 1993.
- 4/، دايفيد جاسير، مقدمة في الهيرمينوطيقا، تر:وجيه قانصو، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم – ناشرون، الجزائر، بيروت، ط2007، 1
- 5/ فيدوح عبد القادر، (ب.ت)، فن التأويل بين الفلسفة الإسلامية والفلسفة الغربية. 17.
- 6/ عابد محمد الجابري، التراث والحدثة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 1991
- 7/ عبد الرحمن طه، فقه الفلسفة 1 - الفلسفة والترجمة - ،المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - بيروت ، ط 1، 1995.
- 8/ مصطفى عادل ، فهم الفهم "مدخل إلى الهيرمينوطيقا" ، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة ط1، 2007

المقالات الإلكترونية:



- 1/المرزوقي أبو يعرب ،(ب.ت)،فلسفة الترجمة الفلسفية وشروط الإبداع الحضاري، إسترجم في تاريخ 25 مارس، 2016 من <http://www.atida.org/forums/showthread.php?t=11340>
- 2/مصباح صالح ،(2013)، الترجمة وتجدد الفلسفة في العربية .مجلة تبين، 6(2)، 61-74.
- 3/ديمتري غوتاس، الترجمة العربية في نهضتها الأولى (قراءة في كتاب - الفكر اليوناني والثقافة العربية)، تر: نقولا زيادة ، قراءة :هالة علي، ب.ط، ب.س، ص267.
- 4/محسن المحمدي ، الترجمة: وسيلة تلاقح حضاري ،مؤسسة مؤمنون بلا حدود.
- 5/فلسفة اليونان وأثرها على بنية الفلسفة الإسلامية، " ألف" لحرية الكشف في الإنسان والكتابة، 30/07/2013.
- 6/ صالح الرقب ، دراسة في الفلسفة اليونانية والإسلامية، موقع الحوار، 24/02/2015، <http://www.alhiwartoday.net/node/9333>
- 7/خديجة السمعلي، الفلسفة والتصوف: قراءة في كتاب الفلسفة الإسلامية لهنري كوبلان ،مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث ،يناير 2015.